ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

تقنيات الحرب في المجتمع البيضاني قبل الاستعمار
الأسلحة والحيوانات

عبد الحميد فائز
باحث في الأنثروبولوجيا بسلك الدكتوراه
جامعة محمد الخامس
الرباط – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

نعمل في هذا البحث، استنادًا على مقاربة تاريخية وأنثروبولوجية، على دراسة التقنيات الحربية وأثرها على التنظيم الاجتماعي بالمجتمع البيضاني قبل الاستعمار، وسنركز تحديدًا، فضلاً عن التعرف على أهمية السلاح في إعادة إنتاج دوائر العنف، وتشكيل الخريطة السياسية والاجتماعية وتدعيم دواعي التغلب بين المجموعات القبلية المختلفة، وتشكيل قواعد محددة لموازين القوى بين هذه القبائل، على رصد الاستراتيجيات الحربية للمجموعات الرعوية، حيث تترجم مختلف تمظهرات العنف، والقواعد التي تتأسس عليها هذه الاستراتيجيات، وأساليب الإغارة، وأشكال الهيمنة المجالية، وما ينتج عنها من تمرس حربي، باختلاف غاياته ورهاناته. كما سنعمل أيضًا على تحليل شبكة الرموز المتصلة بهذه التقنيات، خاصة ما يتعلق منها، بقيم الفروسية والشرف ورمزية الحرب في منطقة بحثنا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٣ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٠٩ مايو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
التقنيات الحربية، الأسلحة التقليدية، حيوانات الركوب، المجتمع البيضاني، المجتمعات الرعوية

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041867

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عبد الحميد فائز. "تقنيات الحرب في المجتمع البيضاني قبل الاستعمار: الأسلحة والحيوانات".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص٤٩ – ٥٥.

مُقَدِّمَةٌ

تبدو دراسة الأسلحة للوهلة الأولى من شأن المتخصصين في تطور صناعة الأسلحة من الخبراء التقنيين والاقتصاديين والسياسيين..، كما أن دراسة تطورها منذ العهود الغابرة يوحي بنوع من الأركيولوجيا التي لا تفيدنا كثيرًا في هذه الدراسة إلا في فهم علاقة الإنسان الأول بالسلاح. إن المدلول الأنثروبولوجي والتاريخي الذي نقترحه في هذا المقال، لتحليل وظائف السلاح في المجتمع البيضاني قبل الاستعمار يتصل بمقارنة أثر هذه التقنيات الحربية على التنظيم الاجتماعي، السياسي والعسكري بمجال الدراسة، وهو تأثير يمتد إلى السلوكات الحربية للقبائل التي تسعى إلى "التسابق نحو امتلاكه"، وإن مثل هذه التعبيرات التي تستعمل في الميادين العسكرية الحديثة قد تفيدنا إلى حد كبير في تحليل عناصر الاتصال بين القدرة التقنية الحربية والتغيير في موازين القوى عند المجموعات القبلية من جهة أخرى.

إن دواعي الاشتغال الأنثروبولوجي والتاريخي على موضوع التقنيات الحربية المرتبطة بالأسلحة والحيوانات، يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي، لا سيما أن دراسة التقنيات الحربية قد طالها الإهمال البحثي، باستثناء بعض الإشارات التي سنحيل عليها فيما بعد، ولم تعنى مجمل الدراسات التي اهتمت بمجال دراستنا بمحاولة البحث حول هذه التقنيات، فضلا عن دراسة العلاقة بين مختلف الجوانب التي تثيرها الإشكاليات المتصلة بها. لذلك لا تهدف هذه الدراسة إلى محاولة فهم تأثير التقنيات الحربية على التنظيم الاجتماعي والسياسي ما قبل الاستعمار حصرًا، بما يعني ذلك الانتباه أيضًا إلى التصورات المحلية وشبكة الرموز الثقافية والاجتماعية التي تتصل برمزية السلاح، كما لا تتجه إلى تحليل طبيعة هذه التقنيات ووظائفها الحربية تحديدًا، أو علاقة العوامل

الخارجية في تغيير موازين القوى بين المجموعات القبلية. ونتيجة لذلك فإننا نعترف منذ البدء أن إهمال جانب من هذه الجوانب، وبالاستناد على محاولة تاريخية لرصد تطور أشكال التسلح في المجتمع البيضاني، واعتمادًا على تموجات التاريخ المحلي (حيث ساهمت مراحل تاريخية دون أخرى، كما سنوضح، في التمهيد لشروط إنتاج العنف) سنحاول أن نوضح جملة العناصر التي تتداخل فيما بينها في سبيل تقديم المرتكزات البحثية لدراسة التقنيات الحربية في المجتمع البيضاني.

أولاً: الأسلحة

يبدو لنا جليًا، كما نتفق، مع ما ذهب إليه الأنثروبولوجي الفرنسي بيير بونت، فإنه في المجتمعات الرعوية، لا يمكن للتقنيات الحربية الحقيقية أن تكون مدروسة خارج نطاق مجموع التقنيات الحربية[١]، ذلك أن إدراك هذا الترابط سيمكننا من فهم وظيفة هذه التقنيات في سياق أعم، فالحيوانات على سبيل المثال، التي تستعمل في الإغارات الحربية على الخصوص، يجري استعمالها على نطاق واسع في مختلف الأنشطة الإنتاجية، ومثله، فإن تجهيز هذه الحيوانات، يخضع لمتطلبات المجتمعات الرعوية، ويخضع حصرًا، في فترة الحرب، لشروط التجهيز العسكري.

إن السلاح يمثل بالنسبة لمجموع هذه التقنيات التي تحدثنا عنها أحد أهم التقنيات التي تسعى المجموعات القبلية المختلفة إلى امتلاكه، وبعبارة أخرى، فإن أهمية الأسلحة لا تنحصر في الوظيفة العسكرية الخالصة التي تحتلها بعض القبائل عند امتلاكه، وإنما تتجسد أهميته في إعادة الترتيب الاجتماعي بصفة خاصة، وإعادة تشكيل الخريطة الاجتماعية والسياسية بصفة عامة. إن السلاح، وبدون شك، هو الذي يقدم مظهر المجتمع في المجتمع، مع المناطق السكنية الخاصة، تراتبيته، سمات اللباس. لكن المعسكر أيضًا نسخة مصغرة من المجتمع صندوق رنين لهذه التعارضات، للإرث التاريخي، للصعوبات الاقتصادية وتصورات السلطة والقوة التي تعبرانها.[٢]

هذه "البنية الحربية" التي تعتمد على التسلح، لا يمكن إدراكهما دون أن نتوقف عند أهمية السلاح ذاته في مجتمع البيضان في مستوى أول، وهكذا فإن الصور التي شكلها الرحالة الأجانب، ستساعدنا في تقديم وصف عام عن هذه الأهمية، ذلك أن أكثر ما أثار هؤلاء "المستكشفين"، إلى جانب عادات هذه المجتمعات وأعرافها ونمط عيشها...، صورة الحرب والتسلح في هذه المجتمعات، هذه الصورة النمطية العامة التي تنطلق من إيديولوجية خاصة لفهم المجتمعات ستعقل لا محالة هذا الإدراك الذي تعوزه الموضوعية التحليلية في كثير من الأحيان، مما حذانا إلى اعتماد الوصف الذي تتضمنه هذه النصوص أكثر من الاعتماد على التأويلات المصاحبة له.

لقد شغلت مضامين الحرب حيزا مهما من كتابات الرحالة الذين دونوا هذه الممارسات الحربية التي عاينوها عن قرب، وهو وصف قلما نجده في الكتابات المصدرية التي تعتمد على السرد أكثر من الوصف. لقد سجل لنا روبرت آدم الذي غرقت سفينته سنة ١٨١٠ على ساحل الصحراء على نحو خمسين ميلا شمال الرأس الأبيض وتم أسره من قبل إيمراكن على الأرجح، وقد أقام عند أولاد دليم عشرة أشهر، ثم عند أولاد أبي السباع، ثم وصل أخيرا إلى أكليميم حيث مكث هناك لمدة تزيد عن السنة، قائلاً: "ويستخدم العرب المنحدرون من الفروع الأقرب إلى البحر البنادق ثنائية الفوهة أو ذات الطلقتين وبعض الأدوات الحديدية المختلفة، التي جلبتها جزر الكناري والتي يعطون مقابل الحصول عليها جزءًا من قطعانهم. ويقال إنهم فرسان ممتازون وماهرون جدا في استخدام الأسلحة النارية والذين نادرًا ما يخطئون هدفهم حتى في حالة الجري بأقصى سرعة الحصان أو جمل الصحراء (المهري) وهم في حروب دائمة مع جيرانهم في الجنوب والشرق، ولكن بدون نتيجة مهمة، لأن عقم التربة في هذه المناطق الرملية، ترك القليل من دواعي الإغراء لغزو الأراضي".[٣]

يوضح لنا نموذج قبيلة أولاد أبي السباع تحكم الشروط العسكرية في التخصص الحربي للمجموعات القبلية الظاعنة، وهكذا، فإن قبيلة السباعيين التي حصلت على سلاح "الوروار" من الفرنسيين قد طورت تنظيمها الحربي والسياسي معا، أو بعبارة أخرى، فقد عززت تقنياتها العسكرية والحربية قدراتها السياسية والتنظيمية ووظائفها الاجتماعية. وهكذا فقد اتجهت القبيلة منذ امتلاكها لهذا النوع من السلاح إلى تغيير موازين القوى العسكرية في بلاد الساحل على الخصوص، والحالة هاته، فإنه في المجتمعات التي يظل فيها التسلح التقني ضعيفا، فإن امتلاك مجموعة دون أخرى له، سينتج عنه نوع من التراتب الاجتماعي والسياسي نتيجة "الغزو"، وهكذا فإن حالة أولاد بالسباع، التي ذكرنا، تمثل أكبر نموذج للتفوق العسكري عن طريق السلاح في مجال دراستنا، وهناك أيضا نتيجة أخرى لامتلاك التقنية الحربية، وتتعلق بما يطلق عليه ب "الحرب المعدية"، وفي ذلك ما يذكره محمد سالم بن الحبيب،" وبعد ذلك انجر أبناء أبي السباع للرقيبات. وكل مرة يأخذون لهم شيئًا من الإبل أو غير ذلك. والرقيبات صابرون واشتغلوا بشراء عدة الوروار واتفقت جماعتهم أن كل رجل بلغ ملكه ثمن وروار يشتريه وإن أبى تأخذه منه الجماعة قهرا وتشتريه وتدفعه له. فلما علمت الناس بذلك صارت التجار تتوارد عليهم من كل ناحية بالمدافع إلى أن حمل كثير منهم السلاح. فلما علم أبناء أبي السباع بأن الرقيبات مشتغلون في شراء السلاح، كثر كلامهم فيهم."[٤]

يعرض لنا الضابط فريرجان في كتابه عن موريتانيا أن أولاد بالسباع بعد "وقعة المونك" قد عرضوا على الإدارة الفرنسية، بعد أن احتجزوا بعثة بلانشيه في السنغال التحالف معها لأخذ ثأرهم من أهل آدرار، وقد مد الفرنسيون، كما في رواية فريرجان، أولاد

بالسباع بسلاح "الورور".[٥] إنه لا مجال هنا لتزكية رواية فيرجان أو ضحدها، فهذه الرواية تفترض قراءات متعددة، غير أن إن اطلاع قبيلة أولاد أبي السباع بالتجارة في مطلع القرن التاسع عشر قد مكنهم من جلب عدد مقتدر من سلاح الورور، "فقد قاد السباعيون القوافل التجارية ما بين حوز مراكش وسوس وبين بلاد شنقيط، وقد زاد من أهمية هذه التجارة وضمان أمن سبلها تملك السباعيين للسلاح كوسيلة لضمان وصول القوافل دون أن تتعرض للنهب"[٦]، وقد ذكر صاحب جوامع المهمات أن أبناء أبي السباع لما خرجت لهم عدة الورور وحملوها، أول من أتاهم بها محمد سالم بن عبد الرحمن بن بعنك سنة ١٣٢٠هـ، فتطاولوا على عامة الناس في هذه الأرض. وشنوا الغارة على جميع أهلها شرقًا وغربًا".[٧]، ويذكر لنا بابه ولد سيديا أن ما شهدته المنطقة من ارتفاع منسوب الحروب في بلاد الساحل في القرن التاسع عشر: "وأما مزيد شوكة أهل الساحل من الرقيبات وأولاد بالسباع وغيرهم في هذه الأرض، أعوام دخول الفرنسيين لها فهو أمر عارض غير أمر المملكة، وكان من أسبابه وقوع الورور والمدافع المعروفة ونحوها بأيديهم قبل سائر أهل هذه الأرض من البيضان... وغيره من فساد ذات بينهم"[٨].

هذه الإشارة التاريخية التي يوردها سيديا تتصل بعوامل محددة، حيث يرى بول باسكون أن الصحراء ما قبل الاستعمار كانت بمثابة كيس من القبائل متفرقة تتناحر فيما بينها ويسلب بعضها بعضا وتتعاقد ولا تقف في العمق أمام القوافل ولا تعيق مردودية التجارة. إن محيط الصحراء جنوب المغرب في سنة ١٨٨١ لم يكن محيطا مبهما حيث تسود القرصنة الغير المنتظرة والمعممة، بل كان غاية في التطور (...) في الصحراء منذ ١٨٢٠ حصل تبدل عام يعود جزء منه إلى حركة القبائل، وإلى ضعف المخزن العلوي وإلى المؤسسات الأوروبية على طول الساحل وإلى الدخول الفرنسي بالسنغال".[٩]

إنه يكفي الحديث عن ثلاث عوامل كبرى لتحديد مصادر التسلح عند البيضان، ويتعلق الأمر بداية بالمبادلات مع الفرنسيين في مستوى أول كما تفيدنا بذلك مختلف المراسلات التي تمت بين الأمراء البيضانيين وبين الإدارة الفرنسية، لقد جاء في بعض المراسلات التي أوردها بول مارتي في كتابيه عن إمارة الترارزة والبراكنة بعض الرسائل التي تضمنت بصفة صريحة طلب بعض الأمراء من الإدارة الفرنسية إمدادها بالسلاح الناري، ومن ضمن هذه المراسلات تلك التي تمت بين أمير الترارزة اعلي بن محمد لحبيب، وقد جاء فيها "إنه موجبه إعلامك أنه حمد الله على مجيئك وما جئت به من الخير والعافية وإعلامك أيضا أنه لا يهمك أمر في جهته إلا وفعل إن شاء الله ما دام حيًا وذلك من فعلك واستقامتك على ما فيه الصلاح بيننا وبينك وما بقي من العيال وراء البحر أحب أن تجعله دونه عاجلا إن أمكن ذلك وأريد منك أيضا أن تقرضني مائة بيصة لا بد منها وإن أمير آنذر قبلك والحمد لله.... ومدفع ولم يفعل وراج منك أن تفعل"، وضمن الاتفاقيات التي تمت بين أمراء الترارزة والبراكنة نجد عددا من البنود المتعلقة بحصول بعض الأعيان على أسلحة وهدايا من الفرنسيين، وقد تضمنت الاتفاقية التي عقدها أمير الترارزة اعل الكوري سنة ١٧٨٥ كما نشرها بول مارتي، بنودا حول الحصول على بندقيتين من "بوفمين"، ومائة رطل بارود...[١٠]

وقد عزز هذا التبادل إلى جانب إمداد البيضانيين بمؤن جديدة، في تحويل موازين القوى التجارية، حيث اتجهت الإدارة الفرنسية إلى تدمير الموانئ التي أنشئها البرتغاليون والبريطانيون، في سبيل التمهيد لتهجير هؤلاء الرحل إلى مدينة سان لوي السنغالية، وبذلك فقد عززت الإدارة الفرنسية هيمنتها الإقليمية من خلال مركز سان لوي[١١]، وقد كانت سياسة كوبولاني في موريتانيا ترمي إلى الحفاظ على موازين الكفة لصالح سان لوي ومحاربة "البيضان المتمردين"، خاصةً لما يتعلق الأمر بالمبادلات التجارية مع السنغال، والتي تُعَدّ موردًا أساسيًا لاقتناء الأسلحة، فقد تأتى له ذلك من خلال عمليات الضبط التي مارستها الإدارة الفرنسية للحيلولة دون نهب القرى السنغالية من قبل كل من البراكنة وإدوعيش على الخصوص[١٢]، وبذلك فقد انتهجت الإدارة الاستعمارية في سان لوي حظرًا سياسيا على منابع التسلح الآتي من السنغال، خاصةً أن هذه الأسلحة كانت توجه للجهاد ضد الفرنسيين، وأن عددًا من الرماة السينغاليين كانوا يبيعون أسلحتهم للبيضان[١٣]، ولم يقتصر تعامل الأوروبيين مع أمراء البيضان، بل شملت المراسلات بعض الشخصيات القبلية، فقد جاء في رسالة مؤرخة في ١٣٦٦هـ الحمد لله وحده: "إنه من محمد يحظيه بن عبد الباقي إلى السيد كفر حاكم أرض البيضان سلام لائق بإعلاء مقامك...وإن البلاد خصب والحال ساكن وإننا وجهنا لك اعلي سالم ابن الفاضل فاعلم من أجل الجماعة وكبرائها... فاستوصي به خيرًا وكلما أتاك به فاحسم مادته وأن تعطيه حقه من العدة والتعلم"[١٤]، وفي رسالة أخرى لنفس الرجل جاء فيها:" إنه من محمد يحظيه بن عبد الباقي إلى كفر حاكم أراض البيضان سلام لائق بأعلا ما يكون من مقام أمثالك ومن موجبه أنه لم يطرأ من الخبر بعد قدوم كبتين بالنفوس إلا استقرار العافية بين أبي السباع وبني دليم وقد تمشينا في ذلك حتى مهد الله العباد والبلاد بالعافية والآن قد بعثت لك أني عبد العزيز وقومه بيده مدافع وروارين نريد بدلهم ونطلب من فضلك أن تمن علي بما أمكن لك من المدافع والتعمار للعيال وأن تمن علي بما يناسب قد وقدرك من بيت المال وبه وجب الإعلام والسلام"[١٥].

ومن جهة ثالثة ظلت الإمكانيات التقنية المحلية غير قادرة على مواكبة صناعة الأسلحة المتطورة إلا من بعض الأسلحة المتهالكة التي لم تستطع مجابهة التقنيات المستوردة أو الخارجية، لقد اقتصر السلاح فيما سبق أن ذكرنا على الأسلحة التقليدية المعروفة، ك "المزاريك" والخناجر" والسكاكين"، وقد ظلت "لكشامة" إلى حدود القرن التاسع عشر أحد أهم البنادق التي عرفتها التقنيات العسكرية في بلاد البيضان، وهو نوع من الأسلحة

الرديئة التي يعتمد على تعبئتها بـ "البارود"، وتصدر هذه البندقية طلقة واحدة ليتم تعبئتها من جديد، وتوضع بجانب قطعة الرصاص قطعة صغيرة من قماش.

إن البحث عن تأريخ لعملية دخول الأسلحة إلى بلاد البيضان وتطوراتها اللاحقة، يحتاج إلى مباحث مضنية ودقيقة، فقد اطلع البرتغاليون عند وصولهم إلى السواحل الأطلنتية بالصحراء ورأس بوجدور إلى المتاجرة مع البرتغاليين[١٦]، وتفيدنا المصادر البرتغالية واليابانية خصوصا، بإشارات بالغة الأهمية عن جلب السلاح المسمى (Tanegashima) من اليابان، ويعتقد محمد ولد الأمير الذي حقق كتاب حوادث السنين، أن لكشامة تعود تسميتها إلى الأصل الذي ذكرنا، ولم يذكر ولد الأمير، عناصر الاتصال هاته من خلال المصادر التي أوردتها، إلا أنه استنتج من خلال اللفظ المتقارب بينهما أن نفس السلاح الذي صنعه اليابانيون هو لكشامة الذي امتلكه البيضانيون.

إننا نجد هذا الاتصال مثبتًا من خلال بعض المراجع المهمة التي اهتمت بالجزيرة اليابانية التي عرفت إنتاج هذا النوع المتطور من السلاح آنذاك، فلقد كتبت "أولوف ليندن" في كتابها المعنون "تانيكشيما: الوصول الأوروبي إلى اليابان"[١٧]، بتفصيل دقيق عن علاقة البرتغاليين بانتقال السلاح إلى مناطق أخرى من المستوطنات التي كانت تحتلها البرتغال[١٨]، ورغم أننا لا نجد هذه المصادر تؤكد على وصول السلاح الياباني إلى صحراء البيضان، إلا أننا نرجح أن استعمال "لكشامة" يعود لسنوات الاحتلال البرتغالي للسواحل، وبداية الاتصال التجاري مع البيضان في جزيرة أركين منذ ١٤٤٨"[١٩]، ويبدو أن وصول البرتغاليين إلى اليابان سنة ١٥٤٣ قد شكل بداية حصول البرتغاليين على السلاح الناري".[٢٠] ويبدو أن مثل هذه الاستنتاجات الأولية تحتاج إلى تدقيق أكثر لمعرفة القنوات التي تم بموجبها الحصول على "لكشامة".

تنتمي لكشامه إلى بنادق الصوان المسماة "لمكحلة" في المجال المغربي الممتد إلى وادي درعة، وقد اطلع على صناعتها الحرفيون المغاربة والجزائريون في مطلع القرن التاسع عشر، غير أن دخولها إلى هذين المجالين يسبق هذا التاريخ بكثير، وتتكون لكشامة، التي تجمع على لكشامات، من "الجعبة" التي تتصل بـ "القصبة"، بينما يسمى وميض طلق البارود بـ "أبخش" ويجمع على "أبخاش"[٢١]، بينما تتصل "الجعبة" بـ "اركيزة" المصنوعة من الخشب في الغالب، ويستعمل المحارب قطعًا من القطن الذي يستعمل في إشعال البارود بعد إضرام النار فيه"[٢٢]، ثم إن هذه "البنادق أو "المكاحل" وفيها يظهر التنوع الكبير، فإلى جانب البنادق الحديثة التي كان المخزن يشتريها من أوروبا كالمارتني والبنادق بالحربة كانت توجد المكاحل القديمة سواء المستوردة أو المصنوعة محليا كالمكاحل بالحجر "بوشفرة" التي تشحن من الفم وتدخل فيها حبة صغيرة من البارود مستديرة، تصنع كذلك في المغرب، وهذه الحبات غالبًا ما كانت أصغر من قطر الفم، فكانت تحاط بشيء من الصوف أو بورق الدوم "الليفة" حتى لا تسقط، وكان البارود يلف في الورق. وهذه المكاحل لا تتعدى رمايتها ٢٠٠م وتتوقف عن العمل إن تبللت بالماء وتنفجر في بعض الأحيان.[٢٣]

تحافظ بعض الأسلحة كـ "الكشامات" على الطابع التقليدي للحروب حيث لا تصيب هذه البندقيات الواحد إلا على بعد مسافات قريبة، وهو نوع من الأسلحة الضعيفة التي لم تطور التقنيات الحربية عند قبائل الصحراء، وبذلك استمرت الحروب في شكل إغارات متبادلة عن قرب يتناوب فيها المحاربون على إطلاق الرصاص من أمكنة قريبة على شكل أساليب تنتهج أسلوب الإغارة، كما يسمى محليًا بـ "الطيحة"[٢٤]، وقد تبنى المحاربون هذا الأسلوب في الهجوم على القوافل التجارية، كما يروي لنا كاميل دولز" كانت سمعة قبيلة أولاد أدليم التي كنت أنا ضيفا عليها في الصحراء الغربية هي أنها قبيلة شرسة ولم تكن هذه السمعة مكتملة، فكلما وجد أحد أولاد دليم فرصة للقتل أو النهب فإنه ينتهزها بتسرع ويخاف كل البيضان البدو نزواتهم المفترسة ولم تكن هذه السمعة مكتملة، فبينما نحن نسير شمالاً رأينا في الأفق قافلة قادمة في الاتجاه المعاكس، وبمشاهدة ركب الإبل المحملة عرفنا أن الأمر يتعلق بقافلة تجارية. فأرسلنا اثنين من الرجال كطلائع للتعرف على القادمين، وبعد نصف ساعة عادوا ليخبروا أن القافلة قادمة من تندوف وتنقل حملاً من التمور في اتجاه تيرس. تتكون القافلة من ثلاثين رجلاً وعشر نساء وأطفال عدة، وثمانية وأربعين جملاً بين الذكور والإناث يمتلكها بيضان من قبيلة أولاد الفلانيين.

اتخذ قرار الهجوم، وتوقف سير المخيم ونوعت الأحمال عن الجمال، ووضع النساء والأطفال في مأمن خلف منحدر، ثم تحضير السلاح الذي يتكون من مدافع بالحجارة تم الحصول عليها من السنغال وخناجر مغربية. وامتطى كل بيضاني جملاً واستأنفنا السير باتجاه القافلة. كل رجال المخيم كانوا مشاركين في الحملة كنا ثلاثين محاربًا وأقول كنا، لأنني ألزمت بمرافقة الفرقة لاستخدام السلاح الذي مددت به عند الضرورة، وبعامل الحذر وضعت في الخلف وكان لا يجوز لي استخدام السلاح إلا إذا ساءت الأمور على المهاجمين. وعندما صرنا على مسافة مائتين أو ثلاثمئة متر من القافلة قام إبراهيم بإشهار سلاحه في الجو مرددا "بسم الله"، ثم وضع مطيته في حالة تراخ سيرًا في اتجاه البيضان المتاجرين وقام جميع أولاد أدليم الاخرين بمتابعته في ذلك مع القيام بحركات مفجعة وأصوات مرعبة لإرهاب ضحاياهم. وبسبب رداءة الذخيرة والسلاح فقلما تصيب طلقة حتى من مسافة قصيرة وتصير قاتلة، ولكن الرعب عمل فيهم أكثر مما عملت ذخيرة المدافع المطلوقة. فلما عرف القادمون أن مهاجميهم هم أولاد أدليم أصابهم ذعر شديد وبدون التفكير في الدفاع تفرقوا لتوهم وتمكن أولاد دليم في وقت وجيز من القضاء عليهم بسرعة وبمعدل ثلاثة مقابل واحد كانت كل مقاومة مستحيلة.[٢٥]

وهكذا؛ فإن دراسة مفصلة للتقنيات الحربية في مجتمع البيضان تصف لنا أهمية السلاح في المجتمعات الرعوية، وهذه الأهمية تستند على رمزية السلاح المماثلة لقيم الشرف والرجولة، ومثله، فإن امتلاكه لا يشكل فقط قيمة رمزية تعتد بها المجموعات القبلية، وإنما تشتمل قيمة السلاح المتطور نسبيا، على إمداد القبائل بالوسائل المادية للتفوق والتجهيز العسكري، وبعبارة أخرى، فإن السلاح ينمي عند الرحل الحاجة إلى خلق التمايز الاجتماعي وخلق تراتبيات اجتماعية، وقد شهدنا من خلال نموذج قبيلة أولاد بالسباع في منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كيف أن القدرات الحربية المتمثلة في حمل السلاح الناري المسمى بـ "الوروار"، قد مكنت القبيلة من التوسع المجالي على حساب قبائل أخرى.

ثانيًا: الحيوانات

يمثل القطيع أحد أهم الموارد التي تسمح بالتجهيز الحربي للمجموعات القبلية، ففضلاً عن أن هذه الحيوانات تؤمن للمجموعات الرعوية وسيلة الغذاء والعيش، فإنها تمكنهم من التفوق الحربي على مجموعات أخرى، وقد لاحظ بونت أن الرعي الترحالي يسمح برصد وتجهيز عدد معتبر من "الحيوانات المركوبة"، الخيل والجمال. من وجهة النظر هذه، فإنه من الضروري التمييز في، إفريقيا، بين الرعاة من صنف "البدويين" الذين يتوفرون على مثل الحيوانات، وبين رعاة الماشية أو "الأبقار" في منطقة السافانا الذين لا يمتلكون هذا الامتياز وفي بعض الأحيان يستعيرون الأحصنة من جيرانهم، وينتج عن ذلك سلسلة من التقنيات العسكرية الأصيلة التي تتميز بأهمية "سلاح الفارس" أو الجمال، سرعة وحركة الإغارات، وعلى العكس، الاستعمال العسكري لحيوانات الركوب له نتائج".[٢٦]

يشير عبد الودود بن الشيخ إلى المكانة الخاصة التي تحتلها الخيول المسماة "المزحفة" التي تقدم لها كل يوم عدة أمداد من اللبن والزرع. هذه الخيول لا تملكها إلا الأسر كبيرة الشأن، وهي تربط بالقرب وينفق عليها: إن عبارة "مزحفة" تعني أنها "معطلة": بعض هذه الخيول... فمقابل خصال الخيول الأصيلة توجد خصال الفارس، هيبته براعته في مجال الفروسية وقدرته على القيام بحركات بهلوانية تثير الإعجاب في مجتمع البيضان. ويوجد تطابق حقيقي بين الفارس والفرس وبين كل واحد منهما ومالك الدابة، فهذه الأخيرة حاضرة ماديا، بوصفها ربيت مربوطة بجانب الخيمة، وموجودة رمزيا في حريم المالك، فهي ترمز إلى السمعة وأيضًا إلى شرف الشخص الذي يملكها، سواء ركبها أم لا.[٢٧] هذه الأهمية تنسحب على العلاقة بين المالك و قطيعه تصل درجة التماهي، التي وصفها بيير بونت في إحدى مقالته، حيث أن ضياع هذا الحيوان أو موته قد يؤدي بمالكه إلى الانتحار، وهو ما يعكس القيمة الخاصة للقطيع[٢٨].

فـ "للخيل عند القبائل البيضانية أهمية كبرى إلى درجة أن كل إمارة بيضانية قد جعلت ل "مداركها" تسميات مختلفة فخيل إدوعيش تسمى الحمامات وأخرى تعرف "بالغزالات". وتسمى خيل أهل عثمان بن الفظيل بآدرار "الكشريات"، وخيل العبلات من مشظوف تسمى الجديات، وخيل لحمنات تسمى الجريبات، ومن فروعها الحوات وأمات الظفيرات والمعنكات. وتسمى خيل الترارزة: بينطات والسبعيات واكبيشات. واكريكبات خيل أولاد بوحمد، والزريكات لأولاد بالسباع[٢٩]، وهو ما يدفع البيضان إلى الاعتناء بالخيول والإبل الأصيلة، خاصة تلك التي تتمتع بأصالة النسب وقوة الحضور في المعارك وسرعة البداهة وسلاسة الحركة، إنها صفات تتماهى مع الفارس الذي يمتلكها، وكأن شرف المحارب متصل بشرفها، فإذا تمت إذايتها أو قتلها وكأنما أصيب الفارس أو قتل.

"كما أن الإبل بدورها تضطلع بأهمية خاصة عند المجموعات القبلية، فبها تقوم الدية، ومنها تعطى لمنيحة، وفي نحرها وعرقبتها إكرام الضيوف الكبار، وتستعمل في السباق، ولا تتم فتوة الموريتاني إلا إذا كان له جمل عتيق عليه عدة جيدة. وكانت القبيلتان إذا عادت إحداهما الأخرى فنهضت إليها يسأل: أين ذهبت الإبل؟ فإذا كان الجيش المغير قد استاقها كان المنتصر، وإذا كان العكس فمعناه أن المغار عليهم لم يهزموا. فلا يسألوا إذا أرادوا معرفة المنتصر، وإذا كان العكس فمعناه أن المغار عليهم لم يهزموا. فلا يسألون- إذا أرادوا معرفة المنتصر- عن عدد القتلى أو الجرحى وإنما عن الإبل من أخذها... كما يشتهر عند البيضان "وضع ميسم على الإبل وتتميز كل قبيلة بميسمها الخاص ويسمى "النار". ومن أشهر ذلك حرف القاف (ق) وهو ميسم اركيبات الساحل أما الكواسم أو الركيبات الشرقيون فيضعون حرف الكاف (ك). وتضع قبيلة كنتة "الحلكة" أي الحلقة. أولاد بالسباع يضعون (مك) وأهل الشيخ ماء العينين النقلي وأولاد أبييري وخاصة أهل شيخ سيديا يضعون الباء (ب)، وأهل بارك الله ميسمهم كإيدقب (لا) وأنواع الميسم أكثر من أن تحصى.[٣٠]

إن امتلاك هذه الحيوانات خاصة الخيل يوحي لنا على الأقل بأمرين اثنين: الأول تتضح من خلاله قدرة المجتمعات الرعوية على إنتاج التمايزات الاجتماعية حتى في امتلاك الحيوانات، وهو ما نلاحظه في مجتمعات رعوية عديدة، "فعند المغول كما عند المساي أو التوارق نجد تربية موجهة لنوع واحد أو نوعين من الخيول ذات الخصائص المحددة لفئات اجتماعية محددة، وفي مجتمع البيضان نجد أن الأمير يحتكر وظيفة تربية هذه الحيوانات المتميزة".[٣١]

هذه الخصائص مجتمعة تحيلنا على خاصية جماعية يتمتع بها القطيع عامة، إذ أن القدرات التدميرية الناتجة عن الغزو تصيب الحيوان في درجة أولى، وسنتوقف في المبحث الذي خصصناه لدراسة النهب، عن هذه القدرات حيث تتجه الغارات الحربية إلى إتلاف القطيع بدرجة أولى، إيمانًا منهم بأن القدرات الإنتاجية التي

يمنحها القطيع للجماعات الرعوية توازيها قوة القبيلة، وبعبارة أخرى، فإن أي مساس بالقطيع، ينتج عنه تدمير واسع للبنيات الإنتاجية للقبيلة. لقد تنبه بيير بونت إلى هذه الخاصية التي يتسم بها الغزو، وهو يستعير مفاهيم الماركسية، ذلك أن "الاستعمالات العسكرية لحيوانات الركوب لها نتائج على المجتمع الرعوي: تخصيص الحيوانات للركوب العسكري يسبب، بعض الضروريات على مستوى الإنتاج، تنظيم جديد وفي بعض الأحيان تركيز هذا الإنتاج. أيضًا فإن الغزو المغولي يتطلب إنشاء خسارات في بعض الأحيان للتدمير الواسع للقوى المنتجة السابقة، لمناطق الركوب، الرعي بالمناطق الآهلة. الاستعمال، في الغالب، امتلاك حيوانات الحرب، هم عادة، محجوزين لأرستقراطية ويشكلون بعدًا مهمًا لممارسة السلطة: عند توارق النيجر، فإن إعادة الإنتاج الأحصنة المسماة "بيكازان"، المخصصة للحرب. كانت مضمونة من طرف التركيز على من الجمال في "تاوشيت" لزعيم ديني أو "الشيخ". نفس الشيء في موريتانيا فإن الأمير يؤمن نوعًا من الاحتكار القبلي على الأحصنة التي تتردد على مستوى طرق التبادل، يراقب عدد من هذه الأحصنة، وبالخصوص الجمال المنتجة."[٣٢]

إن تجهيز الحيوانات للحرب بما فيه تهيئتها للقتال لا يقتصر على فترات الحرب دون السلم، وإنما تمثل عمليات التجهيز والتهيؤ حالة من التربية الخاصة التي تتمتع بها هذه الحيوانات، غير أنه في حالة الحرب، كما يلاحظ بونت، فإن تجهيز حيوانات "اظهر" كما في الحسانية يغير من طبيعة الإنتاج الذي يتركز، كما لم يفصل بونت، في السعي إلى امتلاك هذه الحيوانات بكل الوسائل الممكنة، ومن ضمنها الغزو واقتناء أنواع جديدة. ذلك أن "النمو والتخصص في الإنتاج الرعوي يخلق شروط التوسع في حدود المجتمعات الرعوية وخلق نوع من تقوية الاختطافات والغصب وارتفاع معارك اللصوصية".[٣٣] إن هناك تلازمًا واضحًا بين طبيعة الإنتاج الرعوي والغزو في المجتمع البيضاني، وتتبدى سماته الأساسية إذا ما تفحصنا القدرات الإنتاجية التي دفعت عددا من القبائل إلى تبني الوظيفة الحربية كقبيلة الرقيبات، حيث أن أحد أهم الأسباب التي جعلت من الرقيبات قبيلة محاربة هو "فائض الثروة الحيوانية"، ويبدو ذلك جليا من خلال نص الجوامع الذي ربط بشكل ميكانيكي بين تحول الوظيفة ونمو الثروة الحيوانية " حيث يقول " وذلك أن الرقيبات لما تناسلوا وكثر مالهم وانتشروا وصاروا قبائل شتى وناشبتهم أطراف الرماح اجتمعوا وتشاوروا في أمرهم"[٣٤]

إن تزايد إبل الركيبات قد عرضهم للغزوات المتكررة من طرف مجاوريهم أولاد دليم على الخصوص، ومثله، فإن "التحول الاقتصادي الركيبي القاضي بتربية الإبل قد أعطى فصائل القبيلة جبهة أوسع من أجل التطلع إلى أفق أكبر،" ولقد كان ركيبات الساحل أكثر معاناة لوجودهم الاضطراري بجوار أولاد دليم. وكان عليهم أن يتحملوا تبعات تحولهم التاريخي التدريجي إلى مربي إبل"[٣٥]. لا حاجة لنا في هذا السياق أن نفهم طبيعة الميكانيزمات الأخرى التي أدت إلى مثل هذا التحول من قبيلة "مسالمة" إلى "قبيلة حربية"، فهذه الأخيرة سنفصل فيها ضمن فصل لاحق، لكن ما يهمنا في هذا السياق أن طبيعة الإنتاج الحيواني تكسب المعارك الحربية حيوية كبرى، وهو ما يستدعي، تحليل الأبعاد الاقتصادية، التي تتضمنها مثل هذه القراءة، وبالعكس، فإننا نعتقد أن هذه المرتكزات الاقتصادية تستحق تحليلا أكثر، فالدعامة الاقتصادية بالنسبة لنا في هذا البحث لا تعدو كونها نتيجة للعوامل السياسية والاجتماعية على الخصوص، فحالة الرقيبات، التي ذكرناها، لا يمثل ضمنها العامل الاقتصادي المتعلق بتربية الإبل إلا جزءًا من جملة عوامل أخرى ذات طبيعة سياسية واجتماعية تتعلق بنظام التحالفات القبلية والتنافس السياسي على المجال، ولكن هذا لا يمنع من تحليل بعض العناصر ذات الصلة بموضوعنا، حيث أن نهب القطيع بالخصوص تترتب عنه تبعات تنظيمية تتصل بتقوية القدرات الدفاعية للقبائل المنهوبة، وهو ما يتأكد جليا عند القبائل التي تعرضت للنهب المتكرر للمواشي، إذ تنزع كل قبيلة لا إلى تركيز الإنتاج الحيواني، وفقط، وإنما تجهز عددًا من التقنيات لتجنب حالات النهب المتكررة، وبعبارة أخرى، فإن حيوية الغزيان الناتجة عن النهب تقوي من شروط الاستعدادات العسكرية عند القبائل. إن هذا التظاهر بالوظيفة العسكرية تفسره مجمل الآثار الاجتماعية التي تصاحب النهب إذ أن سرقة القطيع يولد عند الجماعات المنهوبة قدرة حربية خاصة، وقد ذكر بونت ما نصه:

"من خلال التعداد المجرد والسنوي للحوليات: سلب أكبر عدد ممكن من قطعان المواشي من هذه القبائل الكبيرة والتي تملك الكثير من الإبل. ففي النصف الثاني من القرن ١٨ عشر، وفي إطار الظرف التجاري الجديد أصبحت تنمية الإبل تفتح آفاق تطور واعد لتجارة القوافل، وهي الإمكانيات التي وعاها الركيبات، قبل ذلك وإن انحسار حركة التجارة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر سبب تنافسا متزايدا بين هذه القبائل المنمية للإبل، والتي كانت تحاول أن تعوض عن الأرباح التي كانت تجنيها من تجارة القوافل، عن طريق أعمال النهب. إن الركيبات الذين يتوفرون على ثروة كبيرة من الإبل، والذين هم طرف في تجارة القوافل التي تقودهم إلى ضفاف نهر السينغال وإلى السودان لم يبحثوا عن المواجهة مع أولاد غيلان، ولكن هؤلاء بدأوا بأعمال النهب ضدهم. إن تطور هذا الصراع الدموي، نتيجة انتشار الأسلحة الحديثة".[٣٦]

تكتسب الحيوانات الحربية (الخيل، الإبل)، في المجتمعات الرعوية مكانة خاصة، تستمدها من عدد من العناصر الرمزية والثقافية التي تتشبع بهما الثقافة الرعوية، إذ ينشأ من خلال ملازمة بعض الحيوانات للإنسان، في فترات السلم والحرب خصوصًا، نوع من التماهي بين المالك وحيوانه، كما أن هذه الثقافة تنسحب أيضا على دور حيوانات الركوب، وخاصة الأنواع الجيدة من الخيل والجمال، حيث يعكس الاعتناء بها حاجة

الإنسان البدوي إلى الاعتزاز بقيمه الحربية، ويتبدى ذلك جليًا من خلال الاعتناء الخاص بها. كما أن قيمتها تتمظهر في قدرتها على إظهار نوع من التمايز التراتبي والسياسي بين المجموعات الرعوية من جهة، وتهيئ ظروف جيدة للاستعداد الحربي وتقوية التقنيات الحربية عمومًا.

خَاتِمَةٌ

لقد عكس اهتمامنا بالتقنيات الحربية إدراكنا أن أدوات الحرب لا يمكن أن تنفصل عن مجموع الممارسات الاجتماعية والسياسية، خاصةً السلاح والحيوان. فبالنسبة لأدوات الحرب فقد ساعدنا تحديد المراحل الكبرى في وصف أهمية السلاح في المجتمعات الرعوية، وضمنها فقد حددنا مدخلين رئيسين لدراسة هذه الأهمية، الأول: تجسده القيمة الرمزية لامتلاك السلاح، بما يتماثل مع قيم الفروسية والرجولة الحربية اللذان يقدرهما المجتمع، ومن جهة أخرى في القيمة المادية التي يمنحها السلاح لممتلكيه، وقد قمنا بدراسة حالات قبلية خاصة، كأولاد بالسباع والركيبات، لنبين كيف أن السلاح كما يسمح بتدعيم القدرات العسكرية للقبيلة، فإنه قد خلق لنا، في الوقت ذاته دينامية عسكرية وسياسية في مجال البيضان. بينما مكنتنا دراسة أهمية الحيوانات في الأنشطة الحربية من استكناه طبيعة العلاقة بين الإنسان وحيوان الحرب، بما تعنيه هذه المماثلة بين قيم الشرف والفروسية، التي يجدها الرُحل انعكاسًا لاعتزازهم وشجاعتهم الحربية، من آلية تتجلى خلالها معالم التمايز الاجتماعي والسياسي.

الهَوامِشُ:

(١) Pierre Bonte, La guerre dans les sociétés d'éleveurs nomades, in: les Cahiers du Centre d'études et de recherches marxistes, N°133- Paris, 1977, p2.

(٢) ABDEL WEDOUD OULD CHEIKH, «Une armée de tribu ? Les militaires et le pouvoir en Mauritanie», The Maghreb Review, Vol. 35, n° 3, 2010, P. 339.

(٣) Robert Adams, Noueau voyage dans l'interieur de l'Afrique, fait en 1810, 1811, 1812, 1813 et 1814, ou Relation de Robert Adams, traduit par Chavelier de Fransans, L.G. Michaud, Paris, 1819, XX, p. 184.

(٤) محمد سالم بن الحبيب بن عبد الحبيب، **جوامع المهمات في أمور الرقيبات**، تحقيق: مصطفى ناعيمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط. ص ١٠٣.

(٥) Louis Frérejean, Mauritanie 1903-1911 : Mémoires et randonnées de guerre au pays des Beidanes, karthala, Paris, 1995, P. 55.

(٦) محمد دحمان، **دينامية القبيلة الصحراوية في المغارب بين الترحال والإقامة**، طوب بريس، الطبعة الأولى، الرباط. ص ١٢٢.

(٧) محمد سالم بن الحبيب، **جوامع المهمات في أمور الرقيبات**، مصدر سابق، ص ١٠٠.

(٨) بابه بن سيديا، **إمارتا إدوعيش ومشظوف**، تحقيق إزيدبيه ولد محمد محمود، نواكشوط، ١٩٩٢، ص ٩٦.

(٩) Paul Pascon, «Rapport consulaire Mathews: Introduction et annotation », in: Enjeux Sahariens, CNRS, (pp. 103-104).
نقلاً عن: محمد دحمان، **الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب**، مرجع سابق، ص ٨٧.

(١٠) Paul Marty, L'émirat des trarza, Paris, Leroux, 1919, p 172.

(١١) Boubacar Barry, Le royaume de Waalo, Paris, Maspéro, 1972, p 175.

(١٢) Geneviève Désiré-Vuillemin, *Mauritanie Saharienne (novembre 1903 à mai 1904) : suivi de L'opposition des traitants du Sénégal à l'action de Coppolani*, L'Harmattan, septembre 1999, p 74.

(١٣) *Myron J. Echenberg,* Les tirailleurs sénégalais en Afrique Occidentale Française *(1857-1960,) Karthala, 2009*

(١٤) رسالة مؤرخة بسنة ١٣٦٦هـ، بحوزتنا نسخة مصورة منها.

(١٥) رسالة غير مؤرخة، بحوزتنا نسخة مصورة منها.

(١٦) Henri Cordier, Histoire générale de la Chine: et de ses relations avec les pays étrangers depuis les temps les plus anciens jusqu'à la chute de la dynastie Mandchoue, P. Geuthner, Volume 1, 1920, p 99.

(١٧) Olof G. Lidin, The Arrival of Europe in Japan, Copenhagen Nordic Institute of Asian Studies Press, 2002.

(١٨) Ibid, p 4.

(١٩) colonel Modat, « Portugais, arabes et français dans l'Adrar mauritanien », Buelletin du comité d'etude historique et scientifique de l'Afrique occidentale Francaise,Oct-Dec, 1922, p 55

(٢٠) Mota Maria Antónia, Bacelar do Nascimento Maria Fernanda. «Le portugais dans ses variétés». In: *Revue belge de philologie et d'histoire.* Tome 79 fasc. 3, 2001. Langues et littératures modernes - Moderne taal- en letterkunde. P 935.

(٢١) إسماعيل ولد محمد يحظيه ولد الحسن، **الممتع المحيط من كلام أهل شنقيط**، الجزء الأول، دار الفكر، نواكشوط، ٢٠١٠ م، ص١٦٠.

(٢٢) سيدي هيبة التروزي، مقابلة بمدينة بوجدور.

(٢٣) ثريا برادة، **الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر**، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، بمطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص١١٧.

(٢٤) نفسه.

(٢٥) محمد بن بوعليبه بن الغراب، **من رحلات المستكشفين خلال القرن التاسع عشر إلى الامارات العربية في بلاد الصحراء: رحلات ماج جولز وفينسان**، جسور، ٢٠١٢، ص٤.

(٢٦) Pierre Bonte, «la guerre dans les sociétés d'éleveurs nomades», Op, Cit, P. 42.

(٢٧) بيير بونت، إمارة آدرار، مرجع سابق، ص ٣٣٩.

(٢٨) Pierre Bonte, «classe et parenté dans les sociétés segmentaires», in: Dialectique, N°: 21, 1977, p 69.

(٢٩) المختار بن حامد، حوادث السنين، مصدر سابق، ص١١٢، هامش ٣.

(٣٠) نفسه، ص١٢٧ و ١٢٨، هامش ٨.

(□□) Pierre Bonte, « la guerre des sociétés… », op, cit 43

(□□) Ibidem.

(□□) Pierre Bonte,

(٣٤) نفسه، ص ٧٦.

(٣٥) نفسه، ص ٥٨.

(٣٦) بيير بونت، إمارة آدرار، مرجع سابق، ص٤٩٠.